

سَيِّدِي حَمَر

ذكريات الشيخ محمد أبو طير

تحرير
بلال محمد شالش



الخاتمة

أما بعد، فلم أكن في يوم من الأيام على علم بالذي هو آت من الأقدار، وما تحمل في طياتها من هموم وأحداث. يوم أن انطلق بي قطارُ العمر، في رحلته المكتوبة بين المرامة والمصابرة، والتي ارتضيتها لنفسِي عن رضا، وانطلاقاً من قناعاتي التي وقَّعتُ عليها، يوم أن ابتدأتُ سيرتها قبل الاحتلال، وحتى الآن لم تنته فصولها، وإن بدأت معالم النضج، تغدو نحو غاياتها، وتعلو علواً يستفز الاحتلال ومن هم على شاكلته، في ظل اهتراء أتى على مفاصل كثيرة من حياته، وإنه في طريقه إلى الانهيار... إن شاء الله وعمّا قريب.

ومع تقديري لأبعاد الصراع، وقد اقترب حسمه لصالحنا، لا أقول اليوم، ولكنه يحتاج إلى عشر سنوات قادمة وحاسمة، وإذا بمحمد ﷺ والخميس العرمم يزحف وتتجدد صيحاتهما، وإنّا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾¹.

إنه ما أتى على الاحتلال أسوأ من هذه الأيام، فيوم أن قامت دولته، لم تكن بهذا المستوى من السوء، إذ كانت حال الأمة والقضية كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾²، فالناس يومئذ خرجوا على وجوههم، وتركوا ديارهم، أما اليوم، فزحف العودة على الحدود، وثقافة المقاومة هزمت الاحتلال، وشاهدت بأمر عيني كيف كان جنود الاحتلال يفرون من الحرب في الجنوب اللبناني سنة 2006، أما الحرب على غزة، فمن كان خارج غزة رجع إليها والحرب دائرة، والموت يحصد أرواح الناس.

لقد انطلق القطار في رحلته، والمخبوء من الأحداث تدرج بالهموم شيئاً فشيئاً، حتى تعودت النفس الصبر على المصائب، فالغيب عالم مستور لا تتبدى لك أحداثه، إلا مع الزمن، ويطل عليك من نافذته، بقدر ما هو مقدر لك، وما عليك إلا الرضا، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾³ ﴿وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾⁴ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾⁵ ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾⁶.

¹ القرآن الكريم، سورة الصافات، آية 177.

² القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 243.

³ القرآن الكريم، سورة النجم، آية 39-42.

ويوم ارتضيت الجهاد والتحرير طريقاً، كان السجن ضمن توقعاتي، وكنت على خشيةٍ منه؛ لأن باطنه مجهول، ومن ورائه ظلم الاحتلال الذي استثمر الهزيمة. ونغص علينا حياتنا، وحاصرنا بالخوف من الماضي. واعتدى على الحرمات، وانتهك حرمة المقدسات، التي من أجلها يكثر الفزع ولها خصوصية النفير.

ولقد شئت الأقدار أن ألج السجن، وأن أصارع همومه، وأن أتحدى كل ما فيه، وكنت بعون الله أكبر منه، وما سمحت لنفسي أن تستكين. فهو أولاً وأخراً لا يليق بأدمية الإنسان، بل هو عقوبة ظالمة، وأداة من أدوات الطغاة، كما جاء على لسان فرعون في حق موسى ﷺ ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ﴾⁴، ذلك ليحول بين منطق الحق، الذي يحمل لواءه رواد التغيير... وبين الجماهير التي استخف بها هؤلاء الطغاة.

إنه ما من لبنة من لبنات السجن، ولا باب من أبوابه، إلا والقسوة لها فراش، أو متكأ، أو ستار، ومن وراء ذلك ظلم يمارسه الاحتلال. ولولا أن الحرية حالة نفسية مفطور عليها الإنسان، ويغذيها الإيمان بشحناته... لانتهى الإنسان في صراعه إلى الهزيمة، وللبسه ثوب القهر حتى الممات، حيث لا قوة تحول دون المصيبة، كما قال شيخنا مصطفى صادق الرافعي: "ولا يكون شيءٌ حينئذٍ أضعف من قوة القوي، ولا أضيع من حيلة المحتال، ولا أفقر من غنى الغني، ولا أجهل من علم العالم، ويبقى الجهد والحيلة والقوة والعلم... والغنى والسلطان... للإيمان وحده".

إن حياة السجن وحاله، لا تقل عن حالة القبور، فكنت بعد عدد الصباح في رمضان أنزل إلى الساحة للرياضة، ومعني الأخ طه الشخشير، ومعنا ربما ثالث... كنا ننظر إلى الغرف عن بعد مترين... والناس نيام وصيام، وكأنها الكهوف بلا إنارة، وكنت أقول للأخ طه: "انظر إلى هذه المغارات، كأنها القبور"، وهي بلا شك أوكار وقبور، لولا نافذة في باب يغطيها الشبك الحديدي.

إن حياة السجين لها شبهة مع حياة الموتى في القبور، فكما أن القبر يُنوره العمل الصالح، فالسجن كذلك لا يبدد ظلماته إلا العمل الصالح، والعلم النافع، والصبر على النفوس المريضة. وجماع الأمر، أن تستشعر دوماً أنك في حمى الله، فالمهمة الأساسية التي من أجلها بُني السجن، هي الإذلال، وكسر الكبرياء الوطنية والإيمانية، وتحطيم

⁴ القرآن الكريم، سورة الشعراء، آية 29.

القوة النفسية، لهذا المتمرّد الذي لا تعجبه شنشنة الطغاة. فموشيه ديان، وزير دفاع الاحتلال الأسبق، يوم أن طالبوا في الكنيست بإقرار عقوبة الإعدام بحق الأسرى الفلسطينيين، ردّ عليهم بقوله: "أتريدون أن أجعل منهم أبطالاً، لأجعل منهم مع السنين، مَنْ ينظر إلى وجهه في المرأة... فلا يعرف نفسه".

إنه السجن، كالزمن، إن لم تستثمره كان وبالاً عليك، وإن لم تقطعه بالعمل الصالح، قطعك بالأمرض والشهوات. فاشغل نفسك بما ينفعها ويقربك من الله، تظفر بالطمأنينة، وتتجدد فيك نشوة الشباب. وأما الذين يخالفون عن العمل الصالح، ويستسلمون للظلال القاسية، فمعيشتهم ضنكٌ، والمكابرة حياتهم، والضياع سبيلهم، ويتزلفون إلى حياة اللهو والفراغ، عن طريق التلفزيون والموسيقى الصاخبة، والأغاني الماجنة، على حساب الوطنية التي فرغوها من مضامينها، وأصبحت وطراً للمتزلفين.

إنه السجن الذي يُعري النفس البشرية، ولا تُذكر الأسفار مع توقيعاته وبصماته، فإن كان السفر يسفر عن أخلاق الرجال، فالسجن كما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

فمهما حاول الإنسان، أن يتصنع داخل السجن، ففي النهاية إلى متى؟ فالسجن أرض محروقة، والعشرة بين الأسرى لا ثوب يغطيها، إلا الأخلاق الطيبة، والمعاني الحميدة، وأن يلتمس الأسرى لبعضهم الأعداء. وأن يعودوا بسلوكهم إلى قائدهم محمد ﷺ فالسجن لا تُحصى عوراته، والسجين عليه مجاهدة نفسه، فإن نام، فنومه عورة، وإن استيقظ لعدد الصباح، فيقظته عورة، وإن ذهب إلى قضاء الحاجة، فعورة. وأستميح القارئ عذراً، على هذا الحديث، فالغرف في السجن، تتسع إلى ما بين العشرة والعشرين، والخلاء مع الحمام في الغرف، ويجمع بينهما موقع واحد، بل هو محور الغرفة. وأحياناً ينتظر الأسرى على الدور، لقضاء حاجتهم، وإن احتلم فغلسه عورة، وأحياناً تضيق بك الحال، فتخرج عن طورك، فتدافع على لسانك العورات كما قال سيدنا عليّ رضي الله عنه:

لسانك لا تذكر به عورة امرئٍ فكلك عورات وللناس ألسن

وكم من أناس وقعوا فريسة المرض؛ لأنهم لا يأخذون راحتهم عند قضاء الحاجة حياءً وخجلاً؛ ومنهم من يتعب من قضاء الحاجة، وقد استنزفه الوقت لنصف ساعة للمرة الواحدة.

إنها ضريبة لأجل معانٍ عظيمة، من خلال هذه المحنة التي تأكل من أعمارنا، ونتعجل أيامها، والكل يريد أن تنقضي، وهي تستنزف منا زهرة الشباب، والكل يسابق الزمن، ويستعجل طموحاته، ويريدها مع أنفاسه اللاهثة، ولكن هيهات:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وإنه السجن، بقدر ما هو استنزاف لعمر الإنسان وطاقته، بقدر ما هو تجربة لها حساباتها، وللهندسة فيها نصيب؛ لأن لكل نفس بناءها الهندسي، ويتفاوت الفن المعماري في هذا المضمار، من إنسان لإنسان. وبقدر ما أنت حاذق في اختيار المواقف، وعندك إبداع في استغلال الفرص، بقدر ما أنت ناجح، في صياغة الواقع، إلى حالة إيجابية، تنسجم روحها مع الكينونة البشرية، التي تجد راحتها في السمو الأخلاقي، الذي يحفظ النفس من أن تتردى.

إن من ثمرات الهندسة النفسية، أنها لا تقبل الالتواء، الذي هو من العيوب في هندسة النفس، والمقصود أن ما ينطبق على الأشياء في الهندسة، ينطبق على الإنسان كذلك، فقد تعلمت من السيد الوالد، رحمه الله، أن ”الإفتال“ مصطلح يقع على حجر البناء، وكذلك يقع على بعض الناس. فمن الناس من هو مفتول في رأسه، أو فكره، أو سلوكه، أو أخلاقه. فالوالد عاش صنعه بين الحجارة والحديد، وهو دقّاق بامتياز، والدقّاقه قائمة على هندسة الحجر، ولقد برع الوالد، رحمه الله، في هذه الصنعة، يوم أن كانت الحجارة عصية، قبل المحاجر، وآلات قصّ الحجارة من خلال المناشير، كان ذلك قبل 60 سنة ويزيد. وكان يُخرّج حجارة البناء بامتياز، بحيث لا يحتاج الحجر إلى موقعه في البناء، وهي صنعة في حينها، وإلى اليوم، يقتات منها الإنسان، من بين الحديد الفولاذي والحجارة الصلدة، والماهر فيها مهندس في ذاته، حتى ولو كان أمياً.

إنّ الذي دعاني إلى هذا المنحى أن ”الإفتال“ مرض يقع على الحجارة، وعلى من هم كالحجارة. فالبناء مهندس، والدقّاق طبيب ومهندس دون البناء، وكلاهما يُشخص ”الإفتال“، الذي هو عجز في قدرة الدقّاق، على الاتقان، والعين هي الميزان.

و”الإفتال“، لئن رميناه على حجر البناء، فيصح أن نرميه على رؤوس البشر، وعلى أفكارهم، وعلى سلوكياتهم، ومن هذه حاله، وقد عايشنا شريحة من مرضى ”الإفتال“، وسمعنا لأناس على هذه الشاكلة، من الذين يتصدرون القضية الفلسطينية، إعلامياً وسياسياً. فهيهات لحال هؤلاء أن تستقيم، أو تتعافى، ولو أتيتهم بسِنَمَار، أو سنان باشا

(المهندس المعماري التركي الشهير)، ما لم يتحرر من جاهليته، ويتخلَّ عن أحكام سابقة في ذهنه، ويراجع رصيده الفطري، حتى يبدأ من جديد، ما دام في العمر بقية؛ لأن فطرته ذهبت بعيداً عن الحق، الذي قامت عليه السماوات والأرض. ولأن الغزو الفكري أتى على دماغه ففتله، وأصبح ضحية، من ضحايا التمييع الفكري، وقد تحصن بالشبهات بعيداً عن الحقائق، وركب موجة الشبهات والمزايدات، وإذا بالنهاية قول الله تعالى يغلب: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾⁵.

إنني في الختام، أستميح عذراً، من كل مَنْ ناله سوطي بظلم أو أذى، حتى ولو كان عن طريق المداعبة. ومنهم من يستحق أن يُجلد، ومنهم من كنت أرى فيه أكبر وأعز من أن أوجعه، ولو بنظرة، لماضيه الحافل والمشرّف في المقاومة. فكثيراً ما كان الأخ محمود مرداوي، يقول لي عن موسى دودين: هذا موسك، وكنت أرد عليه: نعم هذا موسي، لثقتي بموسى وحبّي له، وكذلك عن الأخ هارون ناصر الدين، كانوا يقولون لي: هذا ولدك المدلل. وأقول: نعم إنه من أحب الناس إلى قلبي، وكانوا يقولون: لماذا هارون فقط؟

نعم لقد كان سوطي حاضراً، وأحياناً موجعاً لكل من خرج عن المؤلف، أو أساء أدبه، وأحياناً بحضرة الحاج إسماعيل أبو شنب، رحمه الله، لكن لا يُرفع السوط إلا بروح المداعبة، حتى مع أولئك الذين خرجوا عن المؤلف، وكانت القهقهة حاضرة مع كل جولة، أو صولة من صولات السوط.

وأختم بمثل سمعته عن أبي، رحمه الله. فقد كان لي صديقٌ يتردد على بيتنا، هو الأخ الحبيب عزمي أبو رمّون، رحمه الله، وعلم أبي عن حاله، أنه تزوج من أربع نساء ولم يعقب. فقال أبي، رحمه الله: ”يا ولدي، البيت الذي لا يعمره رب العالمين... يحار البناء فيه“. ومات أبو عبد الله في حادث انهيار مقبرة باب الساهرة سنة 1990 رحمه الله، وعقب لنا الذكر الحسن والعمل الصالح.

⁵ القرآن الكريم، سورة الأنبياء، آية 18.

Sidi 'Umar: The Memoirs of Muhammad Abu Tair About Resistance and His 33 Years in the Israeli Jails

هذا الكتاب

يسجل هذا الكتاب ذكريات مسيرة طويلة لشيخ مجاهد، وشخصية إسلامية وطنية، برزت في سبعينيات القرن الماضي كأحد رموز المقاومة من أبناء حركة فتح. ثم أصبحت أحد أبرز مؤسسي الجماعة الإسلامية وحركة حماس في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

في هذا الكتاب، يشرح الشيخ محمد أبو طير تجربة 33 عاماً في سجون الاحتلال، ومواقفه ومواقف الحركة الأسيرة من القضايا الوطنية وهموم الأمة المختلفة. ويسجل جزءاً مهماً من تاريخ الأسرى في سجون الاحتلال، وخصوصاً أسرى حماس، وما رافق ذلك من معاناة في السجون ومواجهات مع السجناء. كما يتعرض لعلاقات أسرى حماس بالأسرى من باقي الفصائل الفلسطينية، وما رافق ذلك من حالات تعاون أو شدّ واحتكاك.

وتبرز في هذه الذكريات جوانب من تجارب العمل العسكري المقاوم الذي خاضه أبو طير من خلال فتح، ثم على مدى زمني أوسع من خلال حماس. بالإضافة إلى تجربته في العمل السياسي، وانتخابات المجلس التشريعي للسلطة الفلسطينية.

ويسر مركز الزيتونة طباعة هذا الكتاب الذي يخط شهادة وحكاية الشيخ أبي طير، شيخ بيت المقدس، الذي عُرف بين إخوانه بـ"سيدي عمر"؛ ليكون أحد أهم ما صدر من كتب في تجربة الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

ISBN 978-9953-500-62-1



9 789953 500621



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations

ص.ب. 14-5034 بيروت - لبنان

تلفون: +961 1 803 644 | فاكس: +961 1 803 643

info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

